

المثل من النشأة إلى الاكتساب

Proverbs: origins and acquisition

المهدي الزمراني¹¹جامعة ابن طفيل-القنيطرة- المغرب elmehdi.ezzemrani@uit.ac.ma

تاريخ النشر: 2021/06/01

تاريخ القبول: 2021/05/12

تاريخ الاستلام: 2021/10/01

ملخص

يعد المثل من بين أهم الأشكال الشفهية التي تحيا داخل الذاكرة الجماعية، وتهاجر من ثقافة إلى أخرى، وتتأثر كما تتأثر اللغة/اللهجة التي تحتويها، ولا يخفى على العديد من المهتمين مدى خصوصية المثل ومميزاته التي تجعل منه مسكوكا جاهزا للتواصل دون الحاجة لرجوع إلى مذكرة أو دفتر لتذكره فهو حاضر بحضور الحوادث المماثل للحدث الأول الذي ضرب فيه؛ لهذا تغيب أحيانا كثيرة تلك القصص الأولى التي ضرب فيها فيغيب معها المؤلف، وبالتالي تصبح الأمثال مجهولة المؤلف، ومن ثم يحق لنا التساؤل عن نشأتها وطريقة اكتسابها في الذاكرة الفردية والجماعية.

الكلمات المفتاحية: المثل ; النشأة ; الاكتساب ; الشفهية;الذاكرة الجماعية.

ABSTRACT :

Proverb is one of the most important oral forms which lives in a collective memory, and moves from one culture to another,while it affected as the language /dialect contained .It is known by specialists in this field how proverb is peculiar and very special the fact that makes it a solution to communicate without the need to refer to a note or a book to remember it.In fact it is presented in a case which is very similar or identical to the first event by which the proverb came into existence ; this is why the first events and the author being missed , and thus

¹ المؤلف المرسل: المهدي الزمراني

proverbs' authors become unknown, as a result we can question the proverb's emergence and acquisition in individual and collective memory.

Keywords: Proverb; origin; Acquisition; Collective memory.

تقديم:

لا يسعنا بداية إلا أن نعبر عن اعجابنا بهذا الشكل الشفهي الراقي الذي ألهم الناس على طول الدهر باستعماله وانبهار بوظائفه المتعددة وأهدافه المختلفة. مما يفرض علينا نحن أبناء هذا الجيل بالحفاظ عليه، وخدمته، عبر دراسته من خلال الوسائل العلمية المتاحة، وتجنيد كافة الأدوات المتوفرة من التكنولوجيا المعاصرة، في صون ورعاية هذا الشكل الشعبي المبهر والنفث الذي يعد جزءاً لا يتجزأ من موروثنا الثقافي الممتد عبر الزمن بالرغم من طوله، الأمر الذي يدفعنا لتأكيد على اهتمام به أكثر، واستخلاص العبر منه. خصوصاً وأننا نعيش اليوم تقهقراً صارخاً على مستوى الأخلاق والقيم¹. ولما لا يكون المثل هو مفتاح هذه الانتكاسة الأخلاقية في مجتمعنا. مادام المثل ينبع من روح المجتمع ليعود إليها.

1. تعريف المثل

مما لا شك فيه أن قيمة تحديد المفاهيم في مجال البحث -أيا كان نوعه- لا تنبع من كونها أضحت من التقاليد الراسخة فحسب، بل لأن تحديدها هو تحديد للأرضية التي يقف عليها الباحث، ويبنى من خلالها، ويجدد موقعه ومساره، وهي أولاً وأخيراً تأطير للرؤية المنهجية التي ستحكم تحليله وتصوره.

● التعريف اللغوي للمثل.

جاء في لسان العرب لابن منظور: "يدل الأصل الثلاثي للجدر (م ث ل) على معنى الشبه والنظير: نقول تمثل فلان. ضرب مثلاً. وتمثل بالشيء ضربه مثلاً. ومائل الشيء؛ شابهه... وقد يكون بمعنى العبرة."² يتضح من خلال هذا التعريف أن المثل حسب ابن منظور يبنى على ثلاثة حدود على الأقل: التشابه والتناظر والعبرة.

وعرفه السيوطي " أصل المثل التماثل بين الشيئين في الكلام: كقولهم كما تدين تدان، وهو مثل قولك: هذا مثل الشيء ومثله. كما تقول شبيهه، وشبهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلاً³ .

وجاء في المعجم الوسيط: (المَثَلُ): المِثْلُ. جملة من القول مقتطعة من الكلام، أو مرسلّة بذاتها. تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير، مثل: " الصيف ضيعت اللبن"⁴ ...

يتضح لنا من خلال هذه التعاريف وغيرها مما لم يتسع المجال لذكرها، تتفق على أن المثل يعني المماثلة والمشابهة بين شيئين، فهو كجملة استعارية تعبر عن الموقف بطريقة تلميحية كما أنه ليس تعبيراً لغوياً فحسب بل يحمل في مدلولاته الكثير من الصور التعبيرية التي يلجأ إليها كل واحد، في التعبير الصائب عما يخلج الإنسان في حياته الاجتماعية من إرهابات وتناقضات. وهذه التعاريف اللغوية قريبة من المفهوم الاصطلاحي. كما سنرى.

● التعريف الاصطلاحي للمثل.

لعل من أهم الأقوال التي وصفت الأمثال هي قول الزمخشري في مقدمة كتابه "المستقصى في الأمثال": «قصارى فصاحة العرب ... وجوامع كلمها ونوادر حكمها وبيضة منطقتها وزبد حوارها وبلاغتها التي أعربت بها القرائح السليمة... حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح، وكنت فأغنت عن الإفصاح»⁵. وحسب الجارري فإن هذا القول ينطبق على الأمثال العامية والمعربة. وأضيف أن هذا القول سواء انطبق على الأمثال العامية أو المعربة، من الأمثال العربية، فإنه لا يمنعنا من أن نطبقه على جميع الأمثال في العالم من ظهور الأمثال. لماذا؟ لأن المثل يعبر عن تجربة بشرية قد تحصل للجميع. وبهذا فهو ملك للجماعة إن لم نقل للجماعات، وإن وجدنا في بعض الأحيان أمثال تختلف في النطق لكنها تتفق في المعنى. كما جاء في كتاب (مجمع الأمثال) للميداني، أن ابن المقفع يرى أن الكلام إذا جاء على شكل مثل كان أوقع في السمع، وأخف على الحفظ، إذ يقول: " إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضع للمنطق وآنف للسمع وأوسع لشعوب الحديث"⁶ في هذا التعريف يشير الميداني إلى أن الكلام إذا جاء على شكل مثل كان أسهل للفهم. والمثل

"جملة من القول مقتضية من أصلها أو مرسله بذاتها فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها، من غير تغيير ليلحقوا في لفظها، وعما يوجهه الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عنها"⁷. كما أن المثل يتميز بنوع من العمومية؛ أي بلغة يفهمها كل الناس، والبساطة وهذا ما يؤكد الفارابي في كتابه ديوان العرب، إذ يقول: "بأنه ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه وفي معناه، حتى ابتدلوه فيما بينهم، وفاقوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب القصية..."⁸.

قال ابن السكيت " المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره"⁹.

فهو، هنا، يعرف المثل عن طريق ذكر أركانه، إذ يتميز المثل عن غيره من الكلام بالإيجاز في التعبير والدقة في المعنى وروعة الصورة البيانية. (وهذا ما سيتضح أكثر مع مداخلة الأخ هشام الكوش). وكي يصير المثل ماثورا شفها عليه أن " يوظف صيغا مسكوكة، فهو يكسبها الحياة والحركية باستمرار، بحيث يجعلها تعيش وتتجول وتتحوّل وتهاجر بين الناس. كما يكسبها نظاما نوعيا وموضوعاتيا، حين يجعلها محملة بالمعاني، ويحدد من خلالها: ما يمكن أن يقال، في أي موضوع، على أي شكل، من الذي عليه أن يقول، ولمن ينبغي أن يقال، ومتى يمكن القول..."¹⁰

2. نشأة المثل:

لا بد لأي شيء في الحياة من بداية ونهاية، تحدد مساره التاريخي وتربطه بحقيقته الكونية، التي تعكس جوهره، وقيّمته، وفائدته في الوجود، وتوضح دوره فيها. فالمثل كغيره من الأشكال الشفهية يعيش بين الناس وعند كل الأجناس، فهو وإن كان صورة ذهنية محفوظة عند المتكلم، فإنه -هذا الأخير- لا يستعمله إلا بواسطة اللغة التي تعد الوعاء الفكري والثقافي لأية أمة، بإضافة إلى أن اللغة كائن حي مثله مثل الانسان وباقي الكائنات الأخرى، فهي بدورها تحيا وتموت وتنتقل. وهذا بدوره ينطبق على المثل فهو ينشأ عن تطابق الوقائع لقصة قد وقعت سلفا وتم الحكم عليها بقولة تتردد في كل مرة يعاد فيها تكرار ما حدث في المرة الأولى. بحيث يؤكد عبد العزيز اعمار أنه: " يرتبط ظهور المثل، في الوسط الاجتماعي

أو المهني، بحدوث واقعة أو تجربة أو معرفة أو مهارة. ولا يلبث هذا المثل أن ينتظم إلى جانب أمثال أخرى، في سلسلة التجارب والوقائع والمهارات والمعارف الخاصة بهذه الجماعة أو تلك، معبرا عن أنشطتها ومصالحها وانشغالاتها.¹¹ لهذا نجد عديد من الأمثال تنتظم في موضوعات بعينها وتنسجم أحيانا وتتكامل وقد تتعارض وتتناقض أحيانا أخرى. ومن هنا كذلك نفهم ارتباط الحكاية بالمثل. فإن كانت الحكاية سابقة عن المثل في النشأة والظهور حسب تطور الفكر البشري. فإن المثل جاء ليكمل الحكاية ويحيل عليها وإن باختصار شديد ووجيز للغاية. تماشيا مع مقولة " لكل حكاية مثل، ولكل مثل حكاية".

3. اكتساب المثل:

إن المثل شكل شفهي يتمكن منه الإنسان عبر مرور زمن طويل بعد ولادته واكتسابه للغة بحيث يعد اكتساب المثل أقصى مراحل تعلم اللغة واكتسابها، كما أن اكتسابه يتأتى في شكل تصاعدي إذ كلما كبر الانسان في العمر كبر رصيده من الأمثال، وهذا يدل على الإنسان كلما زاد في السن كلما زادت حكمته ونصيبه من فهم الدنيا وأحوالها. والمثل على قلة حجمه وخفة لفظه يحمل دلالات عدة لا سواء على مستوى الحرفي أو ما خلف السطور أو حتى مرجعيته الأساسية أي القصة الأولى التي مهدت لصناعته الجماعية.

وانطلاقا مما ذهب إليه عبد النور الحضري في مقالة له تحت عنوان "اللغة والمرأة في الفكر الشعبي المغربي"¹² من كون الطفل يندمج فعليا في مجتمعه ويتخلى عن عالمه الشخصي عن طريق اللهجة. يفسر لنا أن الطفل كلما زاد اكتسابا للهجة ولرصيدا للغوي كلما أصبح ذاتا جماعية وتخلي عن خصوصيته الفردية، وهنا يأتي المثل ليبرهن على أنه المرحلة الأخيرة في الاكتساب مادام أن المثل يعد رسالة من مرسل جماعي لا من مرسل فردي، بمعنى أنه أمسى الطفل شيخا ولم يعد يتكلم بالفردانية بقدر ما أضحي صوتا جماعيا يعبر عن الذات الجماعية بجهاز صوتي واحد. وهذا ما أكد عليه أستاذنا في نهاية مناقشة هذه الفكرة حيث قال: " أن الطفل في مرحلة الاكتساب اللغوي يتعلم العبارات والتصورات النمطية والأمثال (les proverbes) ، والألغاز ومثيلاتها من وسائل الحكيم في مرحلة متأخرة من

التعلم اللغوي."13 ويتأكد هذا القول من خلال ما عرضه غريماس A.J.Greimas في حديثه عن الأمثال و الأقوال المأثور في كتابه الشهير (في المعنى)، بأنه " في اللغة تتميز الأمثال والأقوال بوضوح عن مجموع الكلام بتغيير: يكون لدينا عندئذ شعور بأن المتحدث يتخلى طوعا عن صوته متخذاً صوتاً آخر لكي ينطق بمقطع من كلام ليس له، و إنما يستشهد به فقط، يبقى على علماء الصوتيات أن يوضحوا على ماذا بالضبط يقوم هذا التغيير في النغمة. من خلال التلقي وحده، يمكن الادعاء بأن مثلاً ما أو قولاً مأثوراً يظهران كعنصرين من سنن خصوصي، مدرج ضمن الرسائل المتبادلة"14.

بيبلوغرافيا

• A.J.Greimas, Du Sens, Les proverbes et les dictons, Seul, Paris 1970 .

- ابن منظور، (لسان العرب) دار صادر بيروت لبنان.
- أبو هلال حسن العسكري، (جمهرة الأمثال)، دار الكتاب العلمية، بيروت.
- أعمار عبد العزيز. "اللغة التقنية المشتركة بين الحرف والصنائع التقليدية

من خلال الأمثال ". تنسيق Leila MESSAOUDI et Pierre
les technolectes /langues spécialisées en . LERAT.
contexte plurilingue . منشورات مختبر اللغة والمجتمع – CNRST
. URAC56 القنيطرة. 2014 .

- اعمار عبد العزيز. بلاغة الملائنة عند النساء قراءة في المأثور الشفهي. كتاب جماعي "العبارات المسكوكة والتصورات النمطية للنساء في الوسط القروي و/أو الحضري". بتنسيق من ليلي المسعودي وفوزية الغساسي. منشورات مختبر اللغة والمجتمع. نشر الفيك. 2008.
- الجراي عباس، (من وحي التراث)، مطبعة الأمنية، الرباط، بدون تاريخ.
- جلال الدين السيوطي، (المزهر في علوم الادب وأنواعها)،
- الزمخشري، (المستقصى في الأمثال).
- عبد النور الحضري، اللغة والمرأة في الفكر الشعبي المغربي، كتاب جماعي " العبارات المسكوكة والتصورات النمطية للنساء في الوسط القروي و/أو الحضري"، ليلي المسعودي وفوزية الغساسي، نشر الفنك، 2008.
- الفارابي، (ديوان العرب).
- مذكرة لنيل شهادة الماجستير، الأمثال الشعبية بمنطقة لمهير ، دراسة تاريخية وصفية لطالبة كهيبة قاسمي ، موسم 2009/2008.
- المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ط4. 2004.
- المهدي الزمراني، التربية الأسرية والثقافة الشعبية بالبادية، الجريدة التربوية، العدد 71. ماي-يونيو 2017
- الميداني، (مجمع الامثال).

مراجع البحث:

¹: المهدي الزمراني، التربية الأسرية والثقافة الشعبية بالبادية، الجريدة التربوية، العدد 71. ماي-يونيو 2017. ص19.

²: ابن منظور، (لسان العرب)، ج14، مادة مثل، ص:18، وما بعدها.

- ³: أبو هلال حسن العسكري، (جمهرة الأمثال)، دار الكتاب العلمية، بيروت، ج1، ص13.
- ⁴: المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ط4. 2004. ص. 854.
- ⁵: الزمخشري، (المستقصى في الأمثال). ص2. من مخطوط بشير أغا رقم 553 السليمانية-استنبول- ورد عند الجرازي عباس، (من وحي التراث)، مطبعة الأمنية، الرباط، بدون تاريخ.
- ⁶: الميداني، (مجمع الامثال)، م. س ص14.
- ⁷: جلال الدين السيوطي، (المزهر في علوم الادب وأنواعها)، نقلا عن ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، الأمثال الشعبية بمنطقة لمهير ، دراسة تاريخية وصفية لطالبة كهينة قاسيمي ، موسم 2009/2008، ص26
- ⁸: الفارابي، (ديوان العرب)، نقلا عن ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، الأمثال الشعبية بمنطقة لمهير ، دراسة تاريخية وصفية لطالبة كهينة قاسيمي ، موسم 2009/2008، ص26.
- ⁹: الميداني، (مجمع الامثال)، مصدر سابق ص13.
- ¹⁰: عبد العزيز اعمار. بلاغة الملائنة عند النساء قراءة في المأثور الشفهي. كتاب جماعي "العبارات المسكوكة والتصورات النمطية للنساء في الوسط القروي و/أو الحضري". بتنسيق من ليلى المسعودي وفوزية الغساسي. منشورات مختبر اللغة والمجتمع. نشر الفيك. 2008. ص. 10.
- ¹¹: ذ. أعمار عبد العزيز. "اللغة التقنية المشتركة بين الحرف والصنائع التقليدية من خلال الأمثال". تنسيق *les technolectes /langues*. Leila MESSAOUDI et Pierre LERAT. *spécialisées en contexte plurilingue*. منشورات مختبر اللغة والمجتمع - CNRST- URAC56 القنيطرة. 2014. ص.5.
- ¹² عبد النور الحضري، اللغة والمرأة في الفكر الشعبي المغربي، كتاب جماعي "العبارات المسكوكة والتصورات النمطية للنساء في الوسط القروي و/أو الحضري"، ليلى المسعودي وفوزية الغساسي، نشر الفنك، 2008، ص.18.
- ¹³ نفسه، ص.19.
- ¹⁴ A.J.Gremas, Du Sens, Les proverbes et les dictons, Seul, Paris 1970
p.309-314